فتربصوا حتى يأتي الله بأمره

للأستاذ محمد عرفة
مدير الوعظ والإرشاد

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ما روعتني آية من كتاب الله ما روعتني هذه الآية ، وما قرأتها قط إلا ارتعدت فرائصي وخيل إلي أن الأرض تدور بي الفضاء ، ذاك لأنها توجب أن يؤثر المؤمنون الله ورسوله والجهاد في سبيله على الآباء والأبناء والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن ، ولا ترضى منهم أن يؤثروا الله ورسوله والجهاد في سبيله كما يؤثر المرء الدواء المر البشع ، بل لا ترضى إلا أن يكون ذلك الإيثار عن رضى ومحبة ، فإذا دعا داعي الجهاد ودعا المال والولد والعشيرة والمسكن وجب أن يستجيب المؤمنون لداعي الجهاد عن رضى ومحبة ؛ فإن لم يكونوا كذلك فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، وقد أبهم الله هذا الأمر لتذهب النفس في أودية الخوف كل مذهب ، والله لا يهدي القوم الفاسقين الذين فسقوا عن أمر الله وانحرفوا عن الطريق القويم .

تكليف صعب شاق ، وهو على صعوبته ومشقته الطريق الوحيد إلى العزة والأمن والقوة والسمو ، فالأمة التي تؤثر الحق والجهاد في سبيله على ما سواها هي التي تمهد طريقها إلى المعالي ، وتسلك سبيلها إلى العزة القعساء .

أما الأمة التي انتكست فطرتها فآثرت الباطل على الحق ، والدعة على الجهاد في سبيله ، فأقل ما يصيبها من أنواع العقوبات الضعف والذلة والاستكانة إلى الأقوياء ، والاستعباد للمتجبرين ، يستذلونها ويستخدمونها كما يستخدم الإنسان الحيوان الأعجم ، وهذا البلاء الشديد وغيره مما يشمله قوله تعالى : « فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » .

ولا عجب فالمعالي سبيلها غير معبد ، ولها صعداء مطلعها طويل ، وهي لا تنال على الدعة والراحة والطمأنينة والبلهنية ، إنما تنال بالتعب والنصب والكد وتهذيب النفس وتقوية الخلق والإرادة القوية والعزم الشديد . إنما الذي ينال على الدعة والراحة ، الهم الطويل ، والحزن الممض

فليقس كل امرىء إيمانه بهذه الآية ولينظر أيحزن إذا فاته حظ من دينه مثل ما يحزن إذا فاته حظ من دنياه ، أم هو لا يبالي بضياع دينه ويأسى على ما فاته من الحقير من دنياه .

أيجد من قوة اليقين ما يستحثه له دينه على الآباء والأبناء والأهل والعشائر والأموال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا وخيراتها ، أم يجد من ضعف اليقين ما يستحب له عرض الدنيا على دينه وآخرته .

ومن خدع الشيطان ما يوسوس به في النفوس من أن هذا التكليف لم يتحقق وان يتحقق ؛ فإذا لم يحققه المرء في نفسه فله في جميع المكلفين أسوة . هذا ما يحدث به المرء نفسه ، والمرء يلتمس المعاذير ، ولكن التاريخ الإسلامي يحدثنا عن كثير من السابقين الأولين أنهم نالوا هذه الدرجة وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواها .

روى أنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم رهط من قبيلة عضل والقارة وقالوا إن فينا إسلاما فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث رسول الله معهم نفرا ستة من أصحابه فيهم زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدي ، فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل استصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم ، فقالوا لهم إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ، فقال بعضهم والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ، فقاتلوا المشركين حتى قتلوا وأسر زيد وعدي ، وخرج بهما المشركون إلى مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، فأخذ